

أهمية الفاعلية ودورها الحضاري من خلال التربية النبوية.

د. البشير قلاتي
جامعة الأمير عبد القادر
للعلوم الإسلامية (قسنطينة)

ملخص:

كانت السنة النبوية الشريفة، وما تزال، منبعاً ثراً لاستقاء مفاهيم ومناهج التقدم الحضاري من خلال تربية تعمل على ترسيخ قيم التميز والإبداع.

ولاشك أن ما أصاب ويصيب أمتنا اليوم من أزمات على الصعيد الحضاري الشامل؛ من انتكاسات سياسية واقتصادية وثقافية، طبعته واقع الأمة بالتخلف والتبعية، إنما ترجع إلى حالة القطيعة مع منهج سنة نبينا الأعظم (صلوات الله عليه) وافتقادها لمشروع بنائي تربوي جاد مستلهم من تعاليم السنة الشريفة، بعيداً عن مجرد رفع الشعارات الطنانة، والتباهي بتطبيقات مظهرية سطحية...

نحاول، من خلال هذه الدراسة، تحليل عناصر الفاعلية من خلال منهج النبي (صلى الله عليه وسلم) في توجيه وتربية الصحابة، والتي جعلت منهم بناة حضارة إنسانية عالمية أخلاقية متكاملة..

Résumé:

La Sunna est toujours une source de grande concepts et s'approche du progrès de la civilisation, grâce élevage basé sur inculquant les valeurs d'excellence et d'innovation.

Il ne fait aucun doute que ce qui est arrivé à la nation islamique des revers politiques et économiques, retard social et culturel; dû à la rupture des musulmans à l'approche du Grand Prophète, et l'absence de projet de construction éducatif est tiré des enseignements du prophète Mahomet, loin des slogans superficiels et phénotypiques...

Essayer à travers cette étude soulignent l'une des valeurs les plus importantes qui ont réussi l'éducation Prophète Muhammad instillé dans la première communauté apostolique qui a eu un grand rôle dans la construction de la civilisation humaine, une approche intégrée morale, ont également assisté à la marche de l'histoire, qui est la valeur de (**l'efficacité**) dans la communauté musulmane.....

- التمهيد:

يعيش المسلمون في هذا العصر حالة من المدافعة والصراع مع قوى العالم الغربي الذي استحوذ على مصادر القوة العالمية، ما جعل الصراع غير متكافئ، أضحى العالم الإسلامي فيه يتقمص دائما دور الضحية، وهو الدور الطبيعي الذي يتيح له موقعه الحضاري؛ موقع البؤس والهوان والتبعية الذي أوقع المسلمون فيه أنفسهم منذ قرون الانحطاط....

يجد المسلم نفسه، وهو يعيش هذا الواقع، يتساءل حول إشكالية هذا الواقع البئيس؛ بما يترأى له يوميا من صور مزعجة تنقلها له وسائل الإعلام، تصور معاناة المسلمين وضعفهم وقلة حيلتهم،،،،،

لماذا وكيف فقدت الأمة دورها الحضاري الأول في القيادة والريادة؟.. كيف يمكننا استلهاهم منهج سديد يمكن أن تحقق به بعث حضارتها من جديد...؟.. كيف لها أن تستعيد عمليتها وإنجازها الحضاري فكريا وعملا،، كما كانت تنجز على عهد نبيها وقائدها عليه الصلاة والسلام...؟..،، ما هي القيم الأساسية التي غرسها (عليه الصلاة والسلام) من خلال منهجه التربوي في الأمة، فحققت بها تميزها والتي يمكن من خلال تفعيلها وإعادة بعثها أن تحقق نهضة الأمة ومواجهة تحديات معركة البقاء في هذا العصر...؟..

أتصور أن السنة النبوية الشريفة كانت وما زالت منبعاً ثرا لاستقاء مفاهيم ومناهج التقدم الحضاري من خلال تربية تعمل على ترسيخ قيم التميز والإبداع،،،،، وهو ما يظهر في مميزات المجتمع الإسلامي الأول الذي بناه الرسول (صلى الله عليه وسلم)، حوّل به الأفراد من مجرد رعاة إبل وغنم إلى دعاة أمم، وبذلت حال المجتمع من مجرد تجمعات قبلية متنافرة إلى مجتمع متكامل مترابط كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا....

وهو ما يفسر شدة اهتمام علمائنا الأوائل بأدق تفاصيل حياة الرسول الملهم والقائد الرسالي بيانا شرحا وإعلاء، كما فعل الترمذي (رحمه الله) في (الشمائل) بيان (ذكر شعره، شيبه، خضابه، كحلّه، لباسه، عيشه، خفه، نعله، مشيته، جلسته،.... ضحكته، تبسمه، فراشه،....)¹.

لاشك أن ما أصاب ويصيب أمتنا اليوم من أزمات على الصعيد الحضاري الشامل؛ من انتكاسات سياسية واقتصادية وثقافية طبعت واقع الأمة بالتخلف والتبعية... إنما ترجع إلى حالة القطيعة مع منهج سنة نبيها الأعظم

¹ (_ سليمان الندوي ، الرسالة المحمدية ، ط3، دمشق: مكتبة دار الفتح، بيروت: المكتب الإسلامي، 1401 هـ /

(صلوات الله عليه) وافتقادها لمشروع بنائي جاد مستلهم من تعاليم السنة الشريفة ، لا يقتصر على مجرد رفع الشعارات أو اختزال أجزاء منها ؛ بما تعبر عن حالة إحياء شكلية تركز عن مظهرية بلا مضمون

قال تعالى : ((لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)) (آل عمران / 164)

أعتقد أن قاعدة أي مشروع للتحديد الإسلامي هي: ((لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها))¹،

تشكل السنة النبوية أساسا لنهضة الأمة وحلا لمشاكلها الحالية على المستوى الحضاري العام، بشرط أساسي : هو أن يقوم على حسن القراءة لنصوصها وفهم مقاصدي حصيل لتعاليمها، مع فقه واعى للواقع المعيش ولا نتجاوز في ذلك ولا نفتت ؛ لأن السنة واقع عملي تطبيقي للقرآن الكريم :

" مَّن يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا " . (النساء / 80)

وبناء عليه، فإن الأمة اليوم في حاجة ماسة إلى دراسات جادة وعميقة للسنة تضع مشروعا عمليا للنهضة، يتجاوز مجرد السرد والتعبير الأدبي المتسامي المجرد ؛ لتتفاعل ناشئتنا في إطار برنامج تربوي شامل ودقيق مع هدى سنة الرسول الأكرم (صلى الله عليه وسلم) الذي يشكل، في إطار بنائنا الحضاري، النموذج الإحيائي الكامل، بدلا من مظاهر الانسلاخ الخلقي التي تضع لها نماذج المسخ والفسخ التي يروج لها الإعلام السافل عندنا.....

أتصور أن دراستي هذه تحاول تجاوز البحوث النمطية (التي كثيرا ما لا تتجاوز أدبيات التسامي و التمجيد) ؛ حيث يركز أصحابها على مجرد سرد أحداث السيرة وأحاديثها، إلى نوع من التحليل العلمي ، ودراسة أبعاد المنهج التربوي عند سيد البشرية ونموذجها محمد (صلى الله عليه وسلم)، محاولين توظيف بعض الأبحاث الحضارية الدقيقة ودراسات الفقه السنني لحركية التاريخ التي يُشهد بتقدمها عند ألمع المفكرين في هذا المجال (ابن خلدون، ومالك بن نبي ...)...

¹ من الأثر و تنسب لإمام دار الهجرة، مالك بن أنس (رضي الله عنه).

- مفهوم الفاعلية:

الفاعلية (L'EFICACITE...) في الإدارة ، تحقيق أهداف المؤسسة إلى أقصى حد.

وتعني الفاعلية إنجاز الأعمال الواجبة في أقل زمن ممكن...أو هي تحقيق الأهداف بكفاءة عالية أو أداء الأعمال بطريقة صحيحة .

الفاعلية حركية إيجابية وإنجاز الواجب... تقتضي الفاعلية وضوح الهدف ،وهدف الوجود عند المسلم: العبودية التامة لله وحده،((وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون...)). (الذاريات/ 56) ((وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ،ويقوموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ،وذلك دين القيمة)) .(البينة/5) و إعلاء كلمة الله ونصرة دينه ونيل مرضاة رب العالمين....

نقصد بالفعالية - في هذا المقام- :قيمة اجتماعية إيجابية يتحقق بها إنجاز حضاري إيجابي متميز على الصعيد الفكري أو الحركي، في إطار تحقيق العبودية الكاملة لله (عز وجل).

وتتحقق فاعلية الأمة الإسلامية بتحقيق حضورها في العالم؛ أي المساهمة الإيجابية في حركة الحضارة، ماديا أو معنويا ،، وتحمل بُعد الشهادة على الناس ؛ التي كلفت بها الأمة ((وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا...)) (البقرة /143).

- الإسلام مصدر الفاعلية في الأمة :

يبني الإسلام الحضارة؛ إذا استلهمه الإنسان فهما وتطبيقا، وهذا بداليتين:

__ **دلالة تاريخية:** حيث أن شواهد التاريخ وآثاره تشير إلى مآثر الحضارة الزاهية في دمشق وبغداد وسمرقند والأندلس . وهي حضارة إسلامية في عقيدتها الدينية وفي أخلاقها (التسامح، العدل، الإنسانية، روح العلم..) وفي منهجها الإلهي والدعوي . و التي لا نريد أن نبقي نذكرها كأجناد فقط بل علينا الاستفادة من دراستها لرسم معالم مستقبلنا. يقول (مهاتير محمد) في كتابه: (الإسلام والأمة الإسلامية) : "لكي نخطط للمستقبل علينا أولاً أن ننظر للماضي ، كي نعرف من أين جئنا وإن لم نفعل ذلك فإننا قد نترجع إلى الوراء وإن كنا نشعر أننا ماضون إلى الأمام"....¹

¹ - مهاتير محمد، الإسلام والأمة الإسلامية ، ، ط1، بيروت: دار الفكر المعاصر، دمشق: دار الفكر، 2002م، ص 165.

زيادة إلى أنها تعطينا الأمل والثقة بالنفس، وهي من شروط الإقلاع الحضاري.. بشرط أن نتحرك ونتقدم ولا نبقي نتغنى بأجداد ماضينا التليد..

— **دلالة فكرية وجودية:** وتعود إلى أسئلة الوجود التي يطرحها العقل: من أين أتيت وإلى أين المصير؟؟؟ وهي الأسئلة التي يطرحها الإنسان على نفسه لتحديد مصيره ومنهج في الحياة، أما المؤمن فيعتقد أن الله هو الذي خلق الإنسان: "اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق." (العلق/1،2) وخلق له خليفة: "وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة." (البقرة/30). وهو المنطلق السديد السليم لأي حركة إيجابية لصنع التاريخ وتوجيهه.. وكل من انخرط عن هذا المنطلق تتفرق به السبل ويتيه في ظلمات اليأس والفوضى.... أما غير المسلم فيبقى يخطب خطب عشواء، تتيه به سبل مختلفة حيناً، متناقضة أحياناً...

والخلافة (كوظيفة للإنسان في هذه الحياة) تقتضي عبادة الله وعمارة أرضه:

1— عبادة الله وحده: "وما خلقت الجن والإنس إلا يعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون" (الذاريات/56)؛ عبادة الله كما أمر في كتابه؛ إذ أن الله لم يترك الإنسان هملاً، بل رسم له طريقاً يسير عليه. ((لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)) (المائدة/48).

((وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ.)) (الأنعام/153)

2— عمارة الأرض: ((وَالِئِنْ مَوَدَّ أَخَاهُمْ صَلَاحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ)) (هود/61). (والعمارة مفهوم إيجابي من تعمير الأرض و بنائها): و تقوم على:

— العلم: بمفهومه الواسع: وهو أساس الحضارة. ويقوم على حسن قراءة سنن الله في الكون وتسخيرها لخير البشرية.

— العمل بمقتضاه، وكلاهما ورد التأكيد عليه في الإسلام: "أطلبوا العلم ولو في الصين"¹

¹ . ذكره البيهقي في الشعب، والخطيب في الرحلة وغيرها، وابن عبد البر في جامع العلم، والديلمي، كلهم من حديث أبي عاتكة طريف بن سليمان، وابن عبد البر وحده من حديث عبيد بن محمد عن ابن عيينة عن الزهري كلاهما عن أنس مرفوعاً به وهو

ولا شك أن المقصود هو علوم الحياة والتجربة... أما تقديس العمل ففيه نصوص لا يمكن حصرها.. كقوله تعالى :
 " وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون"، واعتبار العمل عبادة ويجسد معنى الفاعلية (الايجابية)، ببيان حقيقة المؤمن أنه كـ" كالغيث أينما وقع نفع"

ومن هنا نكتشف تلك المغالطة التاريخية التي يخطط البعض بها شفتيه حين يزعم أن الغربيين بنوا حضارتهم على نبذ الدين وفصله عن الحياة (العلمانية) ، وعليه يقترح على المسلمين أن يتخلصوا من دينهم ويعزلوه؛ ليتمكنوا من النهوض...!!!.. والطرح هنا مُغالط وغير مؤسس ؛ لبنائه على مقايضة غير منطقية لا تفرق بين ظروف أوروبا التاريخية (واقع الصراع المريع بين رجال الدين ورجال العلم خلال المنتصف الثاني من القرن 15م) ،،،، وظروف العالم الإسلامي الذي شهد أزهى تقدمه الحضاري .

- واقع العالم الإسلامي بين الوجود والحضور:

واقع الحال اليوم يشير أن العالم الإسلامي _ من الناحية الجيوفيزائية _ موجود (في زمانه ومكانه)؛ لكنه غير حاضر؛ وشتان بين الوجود والحضور ، الحضور الذي يقول فيه ها أنذا ، لا أن يكتفي بمجرد الزهو بالتغني باجماد الآباء والأجداد.....أو برفع شعار: الإسلام هو الحل ،والإسلام دين عظيم (لا ريب فيه)... ، لكن هل تكفي الشعارات لتُخرجنا من واقع تخلفنا الحضاري المريع...!!؟؟... لا يسعنا إلا رؤية الأمور بواقعية وتحليلها بدقة لتُشريح الأسباب الحقيقية وراء هواننا وتخلفنا

تعاني الأمة اليوم تخلفاً رهيباً، ليس في الميدان الاقتصادي وحده، ولكن في جميع الميادين؛ أي أن تخلفها تخلف حضاري شامل ، والسبب الأساس هو تخليها عن واجباتها التي أناطها الله بها في خلافته في الأرض (كما تبين)، الواقع ألانفصامي بين العقيدة التي يؤمن بها المسلم وبين الواقع السلوكي (فقدان العقيدة لوظيفتها الاجتماعية) .. وهذا يعني أن تخلف الأمة إرادي؛ أي من صنع الأمة نفسها .. ولهذا شاعت مظاهر الفساد التي هي نتيجة قطع الحبال مع الله : " ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا ، لعلهم يرجعون". (الروم/41).

يؤكد التاريخ أن الفساد (وهو مؤذن بخراب العمران كما يقول ابن خلدون)¹، سببه انحراف الناس عن دينهم، وأن البؤس المعنوي والمادي الذي يعانونه، جزاء من جنس العمل لا أكثر ولا أقل، بل هو بعض منه فقط، لكنها رغم ذلك تعطينا الآية أملا في التغيير: "لعلهم يرجعون".... وهذا على أساس قاعدة التغيير: ((إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)) (الرعد/11).....

والواقع المعيش اليوم يؤكد التخلف الرهيب وحال البؤس الحضاري الذي تعيشه أمة محمد (صلى الله عليه وسلم)، ودورها الضئيل في مجالات التأثير الإيجابي الذي أناطها الله به، وهو الشهادة على الناس (العالم) كما تحققت شهادة الرسول عليها، ولا شك أن من أهم أسباب هذا الضعف والهوان غياب قيمة الفاعلية في حياة المسلمين، وهي القيمة العظيمة التي حرص الرسول (من خلال سنته المطهرة قولاً وعملاً وتوجيهاً على غرسها بين الصحابة (رضوان الله عليهم).... ونتيجة تربية نبوية ربانية استطاع (عليه الصلاة والسلام) تغيير الصحابة من رعاة غنم إلى قادة أمم، وتحويلهم من جاهلية رعناء (السفاهة والطيش) إلى حياة الإيمان والتكافل، فأصبح المسلمون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، وحملوا الهداية للعالمين..

وقد تحققت الأمة بحالة من النفير الحضاري العام؛ أي حالة من حشد وتعبئة الطاقات والقدرات الفردية والجماعية لتحقيق معاني النهوض؛ لبناء قوتها الحضارية: أداء لرسالتها وتبليغا لدعوتها؛ وهو ما يحتاج إرادة قوية للانطلاق الإيجابي والعمل المنتج. وهو ما يفتقده (مع الأسف) المسلمون اليوم.²

- دور التربية النبوية في غرس قيمة الفاعلية في المجتمع:

نحاول أن نتناول ما نعتقد أنه يشكل أهم جوانب الفاعلية التي غرسها المنهج النبوي في التربية، وهي التي استلهمها عليه الصلاة والسلام من ربه: ((وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى...)) (النجم 3/4) فلا جرم أن الذي تولى تربيته هو الله عز وجل: ((أدبني ربي فأحسن تأديبي))³... دون أن نستطرد كثيرا في إيراد الأمثلة

¹ - عبد الرحمن بن خلدون، تاريخ العلامة ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، عبد الرحمن بن خلدون، ص 525.

² - عبد المجيد النجار، عوامل الشهود الحضاري، ط 1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1999م، ص 191...195.

³ - ذكره العسكري في الأمثال من جهة السدي، عن أبي عمارة عن علي (رضي الله عنه)، قال: قدم بنو نهد بن زيد على النبي صلى الله عليه وسلم، فقالوا: أتيناك من غوري تامة، وذكر خطبتهم، وما أجابهم به النبي صلى الله عليه وسلم، قال فقلنا: يا نبي الله =

من سير الصحابة الكرام الذين رباهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) على عينه، فضربوا أروع الأمثلة التي تجسد فاعليتهم في الإبداع والانجاز الحضاري... وكان للتوحيد الخالص لله رب العالمين دور أساس في ترسيخ الهدف الوجودي والغائية الحركية في حياة الصحابة، قبل نزول أي أحكام تشريعية، وعقيدة التوحيد شكلت أساس الفاعلية عندهم... ((قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ)) (الأنعام / 162. 163).

- بُعد الفاعلية في عقيدة التوحيد :

لا جرم أن التوحيد جوهر العقيدة الإسلامية، التي تحمل للإنسانية أسمى وأعلى درجات الحرية في التحقق بالعبودية لله وحده....؛ حيث تحقيق العبودية لله الواحد يعني التحرر آليا من عبودية من سواه، مهما كان: مادة أو معنى، وهو ما يشير إليه مالك بن نبي (رحمه الله)¹ حيث يرى أن : التربية النبوية استطاعت فعلا أن تغرسه فيما للحرية الذاتية والعزة الإيمانية بتحرير الأنا من إसार العبودية لغير الله، وفي المقابل محاربة الظلم، وجوهر هذا الشعور هو إبراز تام لقيمة الإنسان الحقيقية كمخلوق مكرم: ((ولقد كرّمنا بني آدم)) (الاسراء / 70) ؛ تكريم يحدد الشعور نحو الأنا (عزة المؤمن بعبوديته لربه) ونحو الآخر (الاستعلاء الإيماني)، والفرق بين الحرية في الاسلام والحرية التي يتبجح بها الغربيون حسب (مالك بن نبي) أن هذا التكريم ذو بعد روحي، بينما النموذج الغربي يطرح البعد الإنساني وحده ويعمل على تنمية الجانب المادي فقط، وبذلك تكونت في المجتمع الاسلامي الأول ما يسميه (شبكة العلاقات الاجتماعية) التي طعمت الإنسان وحصنته ضد كل النزعات المنافية لهذا الشعور؛ أي النزعات

، نحن بنوا أب واحد ونشأنا في بلد واحد، وإنك تتكلم بلسان ما نفهم أكثره، فقال : ((إن الله عز وجل أدبني، فأحسن تأديبي، ونشأت في بني سعد بن بكر...))، وسنده ضعيف جدا.. ولكن معناه صحيح..

أنظر: محمد عبد الرحمن السخاوي، المقاصد الحسنة، دراسة وتحقيق محمد عثمان الخث، ط1، بيروت: دار الكتاب العربي، 1405هـ/1985م، ص73.

¹ _ مالك بن نبي (1905.1973م) مفكر جزائري، عرف عنه اهتمامه الكبير ببحث مشكلات الحضارة، وقد حملت كتبه (أكثر من عشرين كتابا) دراسات دقيقة في الفكر الحضاري، تأثر بالمدرسة الإصلاحية لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، كما عرف عنه إلمامه بالفكر الغربي الذي نقده، محللا عوار الحضارة الغربية.... أنجزت حول فكره مئات الرسائل والأطروحات الجامعة سواء في الجزائر أو خارجها.....

الفردانية، والأنانيات الوحشية، من خلال تحريره الذاتي والموضوعي من كل عبودية لغير الله، خلافا لقيم الثقافة الغربية التي وفّرت له الضمانات الاجتماعية، لكنها تركته عبدا لهوى نفسه...¹.

ومن هنا نقرأ تلك الكلمة المدوية التي بقيت تشعّ جنبات التاريخ الحضاري الإسلامي التي قالها عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) لواليه على مصر (عمرو بن العاص) حين تعرض أحد الشبان (الأقباط) لظلم من طرف ابنه: "يا عمرو... متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا...؟؟؟؟....": وهو تعبير عن فهم دقيق لمعنى الحرية، ضمن أسمى معاني العبودية لله....

وهذا يؤكد أنّ لفاعلية الأمة حضاريا (على ما بيّناه) دليل على عدم تمثيلها روح عقيدتها تمثلا صحيحا كاملا؛ لأن عقيدة التوحيد أصل ومصدر فاعلية الأمة.....

تبقى الحرية المطلقة فوضى مطلقة، مثلما هو حال الاستبداد وكونه شر كله، كما يقول محمد الغزالي، والاستغناء عن الله مصدر طغيان: "كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى..." (العلق / 6، 7)، وهو ما يؤدي إلى شقاء الإنسان، فكان لزاما وضع ضوابط لهذه الحرية حتى لا تتحول إلى همجية، ولا تفرض كقيود بقدر ما يُشكل التزاما ذاتيا إراديا؛ ليتحقق صالحه في المعاش والمعاد، وهي مقصد الشريعة كما يقول الإمام الشاطبي في موافقاته..... حتى إذا اقتنع الإنسان بالعقيدة أصلا وتبناها مذهبا، التزم بالشريعة تبعا..... فكان في ذلك خيرا له .

ولعل أحسن ما نطالعه في ضبط الحرية في الإسلام، حديث السفينة (التي تمثل المجتمع) الذي يشير فيه (عليه الصلاة والسلام) إلى ضوابط الحرية وخطر انفلاتها، فعن النعمان بن بشير (رضي الله عنهما) عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال:

((مثل القائم على حدود الله، والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا، ونجوا جميعاً))².

¹. مالك بن نبي، تأملات، ط 5، دمشق: دار الفكر، 1412هـ / 1991م، ص 77...79.

². رواه البخاري والترمذي وأحمد.

و لا شك أن ترك هؤلاء يخرقون نصيبهم من شأنه إغراق الجميع، مصير المجتمع الذي سيُدمره سلوك من يريد ممارسة حريته كما يريد.. وهو مقتضى الفاعلية التي رسختها التربية النبوية في نفوس الصحابة: حمل صورة الهم الاجتماعي والأخذ على يد كل من تسول له نفسه خرق قواعد التماسك والتكافل والتراحم و تعريض المجتمع للخطر، وهو مقصد العقوبات والحدود الشرعية ((ولكم في القصص حياة يا أولي الأبصار لعلمكم تتقون)) (البقرة / 179).

تكاد تجمع الدراسات الاجتماعية على أن الحرية - كقيمة اجتماعية أخلاقية ونفسية- شرط أساس في الإبداع والتميز الحضاري، والتاريخ يشهد أن القهر والاستبداد أكبر عائق يقيد حركة الفكر واليد معا، كما يقول ابن خلدون في مقدمته المشهورة¹، وحيث لا حرية لا إبداع ولا فعالية؛ لا من جهة الإبداع العقلي ولا من جهة الإبداع العملي (الوسائل المادية)... ولا شك أن حكم الرسول (صلى الله عليه وسلم) شكّل نموذجا للعدل والحرية، بدلالة مشاورته لأصحابه تطبيقا للأمر الرباني ((فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)) (البقرة / 159)، وقبول انتقاداتهم في بعض ما كان يجتهد فيه (ما لم يكن تشريعا)، كما حدث مع الحُباب بن المنذر (رضي الله عنه) في اختيار مكان عسكرة جيش المسلمين في غزوة بدر²، ولم نقرأ قط أن رسول الله عاقب رجلا أو امرأة، مسلم أو غير مسلم، على رأي أبداه، ما لم يكن فيه تهديد أو يُخشى منه فتنة في المجتمع؛ ((والفتنة أشد من القتل)) (البقرة / 191).

القدوة الحسنة ودورها في التوجيه التربوي:

القدوة هي الأسوة والنموذج المحتذى، يعرفها البعض بأنها: "تجسيد للمثل الأعلى في الواقع البشري المحسوس والمشاهد، وترجمة للنظرية إلى ممارسة وتطبيق وتحويل الفكر والأمل إلى فعل وعمل من خلال عزيمة البشر، وبذلك تتحقق القناعة العقلية المجردة، بأن المثل الأعلى ليس خيالا بعيد المنال ويستحيل التنزيل على الواقع"³..، والقدوة أساس للتربية الناجحة، والدافع للعمل والإنتاج الفكري والمادي؛ لأن القدوة تفعيل لمعاني القيمة مصحوبا بالخبرات والمهارات التي يتطلب تنزيلها على وجه صحيح حركيا وهي تمارس في واقع الحياة. وفي هذا ما يُكسب القيمة طاقتها

¹ . عبد الرحمن بن خلدون، م، س، ص 525، 526.

² _ صفى الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم، د، ط، المنصورة: دار الوفاء، 1425هـ/2004م. ص 196، 195.

³ . جمعة أمين عبد العزيز، التغيير على مناهج النبوة، ط1، الإسكندرية: دار الدعوة، 1415هـ/1995م ص 405.

الحركية في نفوس الناس، فيسهل عليهم امتثالها في السلوك؛ لأن النفس البشرية بالفطرة ميل إلى التقليد والتطبيع لإشباع وضبط غريزة الخضوع والانقياد، كدافع من الدوافع الفطرية للسلوك.¹

يمثل الرسول (صلى الله عليه وسلم) نموذجاً عملياً متكاملًا للمسلمين جميعاً وهذا بتكليف من الله تعالى: ((لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا)) (الاحزاب / 21)

ولا يمكن أن تقوم تربية ناجحة، إن على الصعيد الأسري أو الاجتماعي العام، إلا على أساس القدوة الحسنة؛ أي أن يتمثل القائد أو الحاكم في نفسه ما يأمر به أتباعه،، وإلا كان كلامه عبثاً لا تأثير له، فيصبح مصدر مقت كبير عند الله: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ، كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ)) (الصف / 3، 2). وقد كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) حريصاً كل الحرص على أن يعطي المثل من نفسه الشريفة لأصحابه حتى يغرس الإخلاص في نفوسهم ويدفعهم للحركة والانجاز السليم في أداء أعمالهم، وحتى في تطبيق الحدود على أقرب الناس إليه، كما يروى في حديث المخزومية التي سرقت، وأراد الصحابة أن يشفعوا لها حتى لا يتم تطبيق حد السرقة عليها، حيث قال (عليه الصلاة والسلام): ((وَأَمَّا اللَّهُ، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها...)).²

وقد كان من حرصه (عليه الصلاة والسلام) في غرس قيمة القدوة العملية في منهجه التربوي أنه يشارك أصحابه في إنجاز الأعمال بنفسه، ويتولى في ذلك أصعبها...

ذكر الطبري في خلاصة سير سيد البشر (87/1) أن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان في بعض أسفاره، فأمر بإصلاح شاة فقال رجل: "يا رسول الله علي ذبحها". وقال آخر: "علي سلخها". وقال آخر: "علي طبخها" فقال صلى الله عليه وسلم: "وعلي جمع الحطب...". فقالوا: "يا رسول الله، نحن نكفيك..". فقال: "قد علمت أنكم

¹. محمد قطب، منهج التربية الإسلامية، ط7، القاهرة: دار الشروق، 1407 هـ/1987 م، ص184.

أيضاً، علي جريشة، مناهج الدعوة وأساليبها، علي جريشة، ط2، الجزائر: مكتبة رحاب، 1409 هـ/ 1989، ص168.

² _ أخرجه البخاري ومسلم (كتاب الحدود)، و البخاري بلفظ: حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا الليث عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة: أن قريشاً أتهمهم المرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا: من يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن يجترئ عليه إلا أسامة، حب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: (أتشفع في حد من حدود الله؟) ثم قام فخطب، قال: ((يا أيها الناس، إنما ضلّ من كان قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق = الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد، وأيم الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها...)).

تكفوني؛ ولكي أكره أن أتميز عليكم، فإن الله يكره من عبده أن يراه متميزا بين أصحابه" وقام صلى الله عليه وسلم وجمع الخطب...¹. وهذا السلوك سلوك تربوي عملي يدفع العامة إلى العمل ويحفزهم للإنتاج، وهم يرون قائدهم في المقدمة يكاد وينجز ويجهد نفسه كواحد منهم، فضلا أنه رسول الله الذي يفدونه بأرواحهم....

. غرس قيمة تقديم الواجب على الحق: -

تشكل معادلة [واجب _ حق] أساس أي مشروع إحيائي يهدف إلى تحقيق حركية إيجابية ؛ أي أنها أصل في تحقيق معنى الفاعلية الحضارية على مستوى الأفراد والمجتمعات ، وكل مشروع اجتماعي أو سياسي يعكس المعادلة مآله الفشل المحتوم،،،،،

وتُعد فكرة الواجب فكرة أصيلة في حضارتنا الإسلامية التي كان بداية إشعاعها في غار حراء بأمر محمّد :

((إقرأ باسم ربك الذي خلق)) (سورة العلق)، وهو أمر يوحى بالقيام بواجب القراءة بمفهومها العام...

ونتصور أن المعادلة [حق _ واجب] تأخذ (بصيغة رياضية) ثلاث أشكال:

واجب < حق = 1 + (قيمة إيجابية) ← تنمية وتقدم.

واجب = حق = 0 (قيمة سلبية) ← تخلف.

واجب > حق = 1 _ ← تنمية التخلف.

¹ (ذكره السخاوي رقم 247) (إن الله يكره العبد المتميز على أخيه)

وقال : لا أعرفه وسيأتي في لا خير في صحبة من لا يرى لك من الود مثل ما ترى له ، ثم رأيت في جزء تمثال النعل الشريف لأبي اليمن بن عساكر في الكلام على الأثر ما نصه ويؤيده ما روي أنه أراد أن يمتحن نفسه في شيء قالوا نحن نكفيك يا رسول الله. قال : ((قد علمت أنكم تكفوني ولكن أكره أن أتميز عليكم فإن الله يكره من عبده أن يراه متميزا على أصحابه)) . أنظر: المقاصد الحسنة للسخاوي ، مرجع سابق، ص 210.

وهذا ما يقابله من الناحية الاقتصادية معادلة الإنتاج والاستهلاك¹.... حيث تقتضي الفاعلية زيادة الإنتاج (الواجب) على الاستهلاك (الحق) لتحقيق فائض قيمة التنمية والتقدم. كما تفعل المجتمعات المتقدمة ، أما أغلب المجتمعات الإسلامية فتعكس عندها الآية؛ ما أوقعها فعلا في قيود التخلف والتبعية والمديونية الحضارية مع الأسف.....

والفاعلية تقتضي، بل تحتم علينا تحقيق المعادلة بشكلها الأول، إذا أردنا فعلا تحقيق الصمود في معركة البقاء العالمية.... وهو رهين ببناء الإنسان الفعال؛ لأن المشكلة في أساسها تتركز على كفاءات الاستثمار الاجتماعي ببناء هذا الإنسان، باعتبار أن التنمية البشرية (كما تثبت الدراسات الحضارية المعاصرة) أساس التقدم والارتقاء الحضاري، بدلا من الاكتفاء بالاستثمار المالي وحده؛ الإنسان الذي يقوم بواجبه قبل أن يطلب حقه، لأنه مؤمن أن قيامه بالواجب أصالة يؤدي إلى نيل حقه تبعاً؛ وهو ما نستخلصه من منهج التربية النبوية، التي نجحت تماما في بناء جيل خلت أنفسهم من حظوظ أنفسهم، فأصبح الواحد منهم يلبي داعي الجهاد (الواجب) وهو حديث عهد بزواج، قبل أن يتم غسله.²

وعلى هذا الأساس قام المنهج النبوي في التربية على إرساء دعائم المواخاة (العملية) بدل الأخوة (المجردة)³، تحقيقا للمعنى الجوهرى للواجب كما جسده (عليه الصلاة والسلام) مباشرة بعد الهجرة... والتي أبرزت مظهرها الأكثر سموا بخلق (الإيثار)، قال تعالى مبرزاً هذا السمو الخلقي الرفيع: ((وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُجِبُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنَنَ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ.)) (الحشر / 9)

وتحقيق الفاعلية لا بد له من تجاوز الظاهر إلى إصلاح الباطن، إصلاح داخلي يمس شغاف القلب ويصنع التوتر الدافع للعمل.

ولعل من الأخطاء المنهجية في التغيير والإصلاح الذي وقعت فيه بعض الحركات الدينية المعاصرة — بتأثير من الانفعالية التي تطبعها — الاعتقاد أن الإصلاح الاجتماعي يتحقق من خلال تغيير نظام الحكم السياسي ،

¹ (أنظر : ، مالك بن نبي ، المسلم في عالم الاقتصاد ، ط3، دمشق كدار الفكر، 1987م. ص 86، 87

² (ورد في كتب السير حديث حنظلة الغسيل (غسيل الملائكة)، وهو حنظلة بن أبي عامر، الذي انخلع بين يدي عروسه وهو جنب، بعد أن سمع هواتف الجهاد، وهرع إلى معركة أحد فمات شهيدا...

أنظر: ، الرحيق المختوم، صفى الرحمن المباركفوري، م، س، ص 236.

³ (مالك بن نبي ، وجهة العالم الإسلامي ، ط5، دمشق: دار الفكر ، 1980م ، ص 156 ، 157.

غافلين عن حقيقة أن المسألة منوطة بتغيير البنية الثقافية للمجتمع ، بمشروع تربوي ، وهو ما اعتمده الرسول (صلى الله عليه وسلم) الذي أقام منهجا للتغيير على أساس تربية النفوس على عقيدة التوحيد الخالص، قبل تحطيم الأصنام ، وفتح القلوب قبل فتح البلدان فكانت مرحلة الدعوة قبل الهجرة تأسيسا وترسيخا للعقيدة في النفوس وبعثا للإيمان في القلوب ،وفق قاعدة التغيير التي تؤكد أن ((إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)) (الرعد/ 11)، وكانت مظاهر الإيثار السامية التي سجلتها السيرة النبوية في المدينة، بأحرف من نور، نتاج العقيدة الراسخة في القلوب..

ومن هنا تحقق الفتح المبين ((إنا فتحنا لك فتحا مبينا ..)) (الفتح/ 1)،، فدخل المؤمنون مكة معززين مكرمين فرحين بنصر الله : ((إذا جاء نصر الله والفتح، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا، فسبح بحمد ربك واستغفره، إنه كان توابا)) (النصر)

. مراعاة الخصائص الذاتية والمميزات الفردية :

من معالم المنهج التربوي عند رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مراعاة الفروق الفردية لأصحابه، فكان يحسن توجيه كل لما تيسر القيام به، وهذا أمر هام جدا في كيفية الاستفادة من طاقات الأفراد حيث يضع الرجل المناسب في المكان المناسب ،والعبرة أن الله خلق الناس متفاوتي القدرات، منهم الذكي ومنهم الأقل ذكاء، منهم القوي الشجاع ومنهم الأقل شجاعة..... فلا يمكن للمربي أن يسند مهمة قيادة الجيش مثلا للأقل شجاعة غير الخبير بشؤون القتال مهما بلغ تدينه وتقواه، وقد رفض الرسول (صلى الله عليه وسلم) مثلا أن يولي إمارة للصحابي الجليل أبي ذر الغفاري ، رغم شدة ورعه وتقواه، لأنه ضعيف لا يقوى على تحمل أعبائها.¹

إن إهمال معادلة الخصائص الذاتية للفرد من شأنها هدر الطاقات الفردية وخلخلة البنية الاجتماعية ، وإحداث فوضى تزيد المجتمع تخلفا، كما يحدث في كثير من البلدان الإسلامية حيث معايير الوظائف والأعمال والتكليف بالمهام تقوم على أساس بعيد عن فضائل الأخلاق ومعايير العلم والكفاءة....وهو من أشد معوقات الفعالية والإبداع ؛ما دفع كثيرا من كفاءات العالم الإسلامي والعربي إلى الهجرة إلى بلاد الغرب ليستفيد من طاقات

¹ _ في الحديث عن عبد الملك بن شعيب بن الليث عن أبيه عن يزيد بن أبي حبيب عن بكر بن عمرو عن الحارث بن يزيد الحضرمي عن ابن حجرية الأكبر عن أبي ذر (رضي الله عنه)، قال : قلت : يا رسول الله ، ألا تستعملني؟، قال : (فضرب بيده على منكبي، ثم قال: ((يا أبا ذر ،إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها)...أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب : الإمارة ،باب : كراهية الإمارة بغير ضرورة، 16(1825).

عقلية ومادية هائلة... حتى أضحت كثير من مجتمعاتنا بيئات طاردة للعقول... وأصبحت مقولة (الرجل المناسب في المكان المناسب) عندنا مجرد شعار نرفعه لا منهجا نطبقه؛ ما أنتج في مجتمعا فوضى اجتماعية، بُدّدت فيها طاقات العقول والأجسام، و ضعفت بذلك الثقة بين المواطن والحاكم؛ ما أضعف طاقات الانجاز الفردي والجماعي، وأضحى كلّ يعمل على شاكلته، في صورة غريبة من تضارب الإرادات وتعاكس الأعمال. (سواء على مستوى العلاقات الأفقية أو العلاقات العمودية).. وهذا ما لا يمكن أن يسدّد حركية المجتمع إلى الأمام؛ لانعدام قيمة الفاعلية الحركية... خلافا لما حددته تربية المصطفى (عليه الصلاة والسلام) التي صنعت من المجتمع جهازا تتحرك آلاته منسجمة متناغمة، لا تشذ عنها قطعة واحدة، كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى..، وكل شذوذ يطرأ من فرد أو أفراد يتصدى له المجتمع بالإنكار، في مجتمع رباه الرسول الأمين على عدم السكوت على باطل وعلمه أن السعي لتغيير المنكر عبادة وجهاد، حتى يحافظ على انسجام وتناغم حركية المجتمع، إلى درجة من السمو الخلقي الذي دفع الفرد إلى أن يعرض نفسه للعقوبة، رغم أن فيها تلف نفسه!!؛ لشعوره بوطأة جرمه على نفسه، وإثم الخيانة الذي يخنقه ويمسك بتلابيبه صباح مساء¹، وهذا بنى الرسول الأكرم مجتمعا متماسكا فعّالا، وقامت به حضارة من أزهى الحضارات التي عرفها تاريخ البشرية؛ بلغ مداها حدود الصين شرقا ودقت أبواب أوروبا غربا... وضربت أروع أمثال البطولة والتسامح ونشر قيم الخير والعدل..

__ تثمين قيمة العمل كعبادة :

قامت التربية النبوية على ترسيخ قيمة العمل كفعل عبادة ((وَقُلْ اْعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)) (التوبة/105).

والمجتمع الإسلامي ليس مجتمعا متبطلا، بل إن الحركة الإيجابية من لوازم فعاليته في الانجاز، ولا خير في مؤمن يكسل عن العمل دون عذر شرعي؛ لأن العمل عبادة والبطالة معصية، والتفكير فريضة إسلامية كما يقول العقاد....

¹ . جاء في الموطأ: حدثني ابن شهاب؛ أنه أخبره أن رجلا اعترف على نفسه بالزنا على عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وشهد على نفسه أربع مرات، فأمر به رسول الله فُرجم. قال مرسل وقد رواه الشيخان... أنظر مالك بن أنس (رضي الله عنه)، الموطأ، صححه وخرّج أحاديثه، محمد فؤاد عبد الباقي، د، ت، بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1406هـ/1985م، ص 821.

كان (عليه الصلاة والسلام) يعطي المثل من نفسه عمليا ،حيث شارك بهمة ونشاط في بناء مسجد قباء، كما شارك بفعالية في حفر الخندق حول المدينة في غزوة الأحزاب، وكان لا يقر الكسول على كسله مبينا موضحا أن اتخاذ الأسباب واجب شرعي، وإهمالها، بحجة التوكل، معصية ، ولا مجال للتوكل في مجتمع إسلامي يقوم على الحركة، ولا مجال للتبطل و الراحة عند المسلم، إلا إذا فاضت روحه وخمد جسده،وقد أجاب الرسول من سأله عن ناقتة: أأعقلها وأتوكل أم أتركها؟؟؟... فقال : ((أعقلها وتوكل))،وهو ما يتناقض مع ما يدعيه بعض أدعياء التصوف من ترك العمل والاتكال على الله بدعوى الزهد والتفويض....وغاب عن هؤلاء أن الأنبياء أنفسهم كانوا من أصحاب الحرف ،، وأن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة إلا لمن استفرغ جهده في العمل والكدح،ولكل مجتهد نصيب....

والتأكيد على الأخذ بأسباب القوة (المادية والمعنوية) جاء في الحديث: ((المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف،وفي كل خير ، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز ،وإن أصابك شيء فلا تقل : لو أني فعلت كذا لكان كذا ،ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان...))¹

وفي الحديث توجيه قوي من الرسول (صلى الله عليه وسلم) لأئمة في اكتساب مصادر القوة، والتمكن من أسبابها، وبيان أن ذلك من صميم التوكل على الله والاستعانة به ،مع نبذ العجز والكسل².

فالتأكيد النبوي على العمل والكدح أمر معروف من خلال أحاديث كثيرة ،منها حديث :

((ما أكل أحدٌ طعاماً قط ،خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبي الله داود (عليه السلام) كان يأكل من عمل يده))³ . ، النهي عن التسول مع القدرة على العمل، فعن الزبير بن العوام (رضي الله عنه)عن النبي

(صلى الله عليه وسلم)قال: ((لأن يأخذ أحدكم حبلًا ،فيأخذ حزمة من الحطب،فيبيع فيكف الله به خير من أن يسأل الناس أعطى أم مُنع.))⁴. وفي الموطأ: ((والذي نفسي بيده ،لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يأتي رجلاً أعطاه الله من فضله، فيسأله أعطاه أو منعه))⁵.. بل إن كل عمل منتج هو خير

¹ _ أخرجه مسلم،(2664) كتاب القدر ، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله..

² _ من مآثور دعائه عليه الصلاة والسلام: " اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن،والعجز والكسل ،والبخل والجبن،وغلبة الدين وقهر الرجال...."وفي رواية بزيادة : وفتنة الحيا والممات...

³ _ أخرجه البخاري،كتاب البيوع ،باب كسب الرجل من عمل يده ،9/3/2.

⁴ _ أخرجه البخاري،كتاب البيوع،باب بيع الحطب والكلاء،79/3/2.

⁵ . الموطأ،الإمام مالك،ج2،ص998،999.

وبركة تعود على صاحبها ، جاء في الحديث: ((ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعاً ، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة)).¹

وهذه روح الفاعلية التي يفتقدها المسلمون اليوم (مع الأسف) ، ما قعد بهم عن مراتب الإبداع وأوقعهم في ورطة التبعية للحضارة الغربية ،، بينما كان حري بهم إتباع توجيه نبيهم (عليه الصلاة والسلام)، حتى يحققوا مكانتهم في العالم ؛ ليس مجرد وجود جيوغرافي بل وجودا حضوريا فاعلا: حضور الشهود والتوجيه،،، (حمل الكتاب بقوة) ، فيحققون أمانة التبليغ (الشهادة على الناس) مثلما أداها نبيهم (عليه الصلاة والسلام)، فيشهد عليهم يوم القيامة؛ يوم الموقف العظيم..... ((وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا....)) (البقرة/ 143)

_ الخاتمة:

كانت وما تزال السنة النبوية الشريفة منبعاً ثراً لاستقاء مفاهيم ومناهج التقدم الحضاري من خلال تربية تعمل على ترسيخ قيم التميز والإبداع،،،،،،

حاولت استجلاء عناصر أساسية في التربية النبوية ، التي بنى الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) ، من خلالها جيلا من أعظم الأجيال التي استطاعت بناء حضارة من أرقى الحضارات في التاريخ....

وباعتبار أن قيمة الفاعلية قيمة اجتماعية أساسية في أي مشروع نهضوي؛ حيث جعلت الكثير من مفكري الغرب يتباهى بها كأحد أهم القيم الثقافية الغربية، فإني حاولت دراسة الأسس المنهجية التربوية التي استطاع الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن يرسخ بها هذه القيمة، فبنى إنسانا مؤمنا رساليا مثل: " الغيث أينما وقع نفع "، وأقام مجتمعا متماسكا شكّل فيه كل فرد لبنة صلبة أساسية ؛ مجتمع منسجم متناغم، تجتمع فيه الطاقات في حركة نحو الأمام، وهو ما تحقق في وحدة الأمة وتماسكها تحت راية عقيدة التوحيد ، في وضوح الطريق ، وبيان الهدف: عبودية تامة لله تحقّقا وتحقيقا،، وهو ما أنتج حضارة جمعت السمو الروحي والفضيلة الخلقية إلى الانجاز العلمي الذي أثمرت به العالم آنذاك

¹ _ أخرجه البخاري، كتاب البيوع، باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه، 66/3/2.

ولاشك أن ما أصاب ويصيب أمتنا اليوم من أزمات على الصعيد الحضاري الشامل؛ من انتكاسات سياسية واقتصادية وثقافية..، طبعت واقع الأمة بالتخلف والتبعية...إنما ترجع إلى حالة القطيعة مع منهج سنة نبينا الأعظم (صلوات الله عليه) وافتقادها لمشروع بنائي جاد مستلهم من تعاليم السنة الشريفة، لا يقتصر على مجرد رفع الشعارات أو اختزال أجزاء منها، قد تعبر عن حالة إحياء، تركز على مظهرية بلا مضمون.....

نتصور أن السنة النبوية تشكل أساسا لنهضة الأمة وحلا لمشاكلها الحالية على المستوى الحضاري العام، بشرط أساسي يقوم على حسن القراءة لنصوصها وفهم مقاصدي حنيف لتعاليمها مع فقه واعى للواقع المعيش....ولا نتجاوز في ذلك ولا نفتئت؛ لأن السنة واقع عملي تطبيقي للقرآن الكريم :

((مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا)) . (النساء / 80)

تواجه الأمة اليوم تحديات كبرى ، حيث تفرض عليها صراعات البقاء، في ظل مرحلة تشهد بعصر عولمي يؤكد معادلة صعبة وخطيرة تفرض نفسها على الأمة : (إما أن تتغير وإما أن تُغير).....

وبناء عليه، فإن الأمة اليوم في حاجة ماسة إلى دراسات جادة وعميقة للسنة لتضع مشروعا عمليا للنهضة، يتجاوز مجرد السرد والتعبير الأدبي المجرد؛ حتى تتفاعل ناشئتنا في إطار برنامج تربوي شامل ودقيق مع هدى سنة الرسول الأكرم (صلى الله عليه وسلم) الذي يشكل، في إطار بنائنا الحضاري، النموذج الكامل، بدلا من مظاهر الانسلاخ الخلقي التي تضع لها نماذج المسخ والفسخ التي يروج لها الإعلام السافل عندنا.....

لا أمل للأمة الإسلامية اليوم في تحقيق تواصلها الحضاري في عصر التبئيس الذي تعيشه اليوم (ضعف دورها الانجازي ،ومديونيتها الحضارية) إلا بإعادة بعث سنة نبينا (ليس أحاديثا تُروى فحسب)، بل سنة نُحيا وتُتمثل واقعا ضمن مناهج تربوية سلوكية، وعدم الاكتفاء بالتمجيد وحده، مع توجيه وسائل الإعلام في مشروع إحياء المنهج التربوي النبوي، سلوكا ومعاملات، وبيان شامل لسيرته (عليه الصلاة والسلام) كقدوة ونموذج للشباب حتى لا يتعلقوا بنماذج ممسوخة يقلدونها بعمى أصاب بصائرهم، بتأثير من زخم الترويج الإعلامي المفسد،،،،،

ولاشك أن هذا المشروع يحتاج إلى بذل جهود جبارة من علماء ودعاة العالم الإسلامي من المشرق والمغرب، ضمن مؤسسات العمل الدعوي التي تحتاج إلى تمويل جبار من أغنياء المسلمين لبناء مشاريع إعلامية رسالية هادفة، منها قنوات فضائية يقوم عليها خبراء مخلصون من أبناء الأمة، تهدف إلى استقطاب شبابنا وتربيتهم على هدى سنة نبينا الإنسان الكامل (صلى الله عليه وسلم). ودون ذلك لن نتخلص الأمة من

مظاهر عطالة الفكر وبطالة اليد التي تطبع مجتمعاتها باللافاعلية التي جعلت المسلمين اليوم يقفون في مؤخرة الأمم.

وهذه المشكلة إنما يحلها المسلمون أنفسهم إذا توفرت فيهم إرادة التغيير الذاتي في الإصلاح الذي لا يتم إلا بما صلح به أوائلهم؛ لأن قاعدة التغيير كانت وما زالت هي :

((إن الله لا يُغير ما بقوم حتى يُغيروا ما بأنفسهم)) (الرعد/11)...

أوصي باستنفار جهود الطيبين من أغنياء المسلمين (خاصة من أبناء الخليج الكرام) في تخصيص أجزاء من أموالهم في إنشاء قنوات فضائية متخصصة للدعوة وفق منهج التربية النبوية ؛ لما للإعلام المرئي من تأثير خطير على الشباب، تضم نخبة العلماء والدعاة تحمل راية إعلاء السنة الشريفة كدراسات جادة ،وتقديمها كبرامج توعية عملية سلوكية، وعدم الاكتفاء بالدفاع عن الشبهات فقط، بل تقدم نماذج سامقة ممن رباهم الرسول على عينه ،باللغة العربية واللغات الحية، وخاصة الإنجليزية...

أوصي بعدم الانجرار وراء حملات السباب والشتائم الموجهة ضد السنة وضد شخص صاحبها المكرم (صلى الله عليه وسلم) و التي يغلفها أصحابها الحاقدون بلباس النقد العلمي تحت ستار حرية الرأي ...والتي نراها حيلة المراء منها إشغال المسلمين عن مشروعهم الإيجابي في إحياء السنة كمنهج عمل وفاعلية من شأنه بناء نهضة الأمة وإنقاذ البشرية من تيهها وعبثيتها، مع إبقائهم في ركن المدافعة (السلبية) وإهدار الطاقات في الجدليات الدفاعية...

أُتصور ضرورة تجاوز تلك الأساليب التقليدية التي تكتفي بالتمجيد والمديح ، إلى وضع مناهج للتدريس والتربية ،تقوم على وضعها نخبة من الأساتذة والعلماء والدعاة ،توضع كبرامج دراسية تربوية من مراحل التعليم الأولى إلى الجامعة،،تقوم على استخلاص قيم التربية النبوية بمنهج علمي وعملي دقيق....

المراجع :

- . القرآن الكريم برواية ورش.
- . الإسلام والأمة الإسلامية ، مهاتير محمد ، ط1، بيروت: دار الفكر المعاصر، دمشق: دار الفكر، 2002م.
- . تاريخ العلامة ابن خلدون، مقدمة كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، عبد الرحمن ابن خلدون ، ، د.ط، بيروت : دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة ، د.ت ، ج1 .
- . تأملات، مالك بن نبي، ط 5 ، دمشق : دار الفكر ، 1412هـ / 1991م.
- . التغيير على مناهج النبوة، جمعة أمين عبد العزيز، ط1، الإسكندرية: دار الدعوة، 1415هـ/ 1995م.
- . الرحيق المختوم، صفى الرحمن المباركفوري، د، ط ، المنصورة: دار الوفاء، 1425هـ/ 2004م.
- . الرسالة المحمدية، السيد سليمان الندوي ، ط3، دمشق: مكتبة دار الفتح، بيروت: المكتب الإسلامي، 1401هـ/ 1982م.
- . صحيح البخاري، د، ط، بيروت: دار الفكر، 1401هـ / 1981م.
- . صحيح مسلم، شرح النووي، د، ط، بيروت: دار الفكر، 1401هـ/ 1981م.
- . عوامل الشهود الحضاري، عبد المجيد النجار ، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1999م.
- . المسلم في عالم الاقتصاد، مالك بن نبي، ط3، دمشق كدار الفكر، 1987م.
- . المقاصد الحسنة ، محمد عبد الرحمن السخاوي ، دراسة وتحقيق محمد عثمان الخث، ط1، بيروت: دار الكتاب العربي، 1405هـ/ 1985م.

- . منهاج الدعوة وأساليبها، علي جريشة ، ط2، الجزائر: مكتبة رحاب، 1409هـ/1989م.
- . منهج التربية الإسلامية، محمد قطب، ط7، القاهرة: دار الشروق، 1407 هـ/1987م.
- _ الموطأ، مالك بن أنس (رضي الله عنه)، صححه وخرج أحاديثه، محمد فؤاد عبد الباقي، د، ت، بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1406 هـ/1985م.
- . وجهة العالم الإسلامي، مالك بن نبي ، ط5، دمشق: دار الفكر ، 1980م.